

هاجس اليساريون في الفكر العربي وقضايا الإشكالية

د. رايس زواوي

جامعة سيدي بلعباس (الجزائر)

rais111@yahoo.fr

الملخص:

لا تختلف الشعوب العربية في طموحها للعدالة والحرية، ولا تختلف الأنظمة العربية كثيراً، ولكن المجتمعات العربية تختلف في بنيتها، وفي علاقة هذه البنية مع الدولة. ففي بعض المجتمعات تنمى بعض المجتمعات الأهلية أو تتنازع مع النظام القائم الذي لم يطور علاقة مواطنة من خلال عملية بناء الأمة والمؤسسات. وهنا ينشأ خطر أن تؤدي الثورة إلى إحتدام بين سياسات الهوية، وينشأ أمل أن تقوم هي بعملية بناء الأمة المواطنة عبر النموذج الذي طرحه بواسطة قياداتها، وخطاباتها، وبرامجها، وسياساتها، وعلى الديمقراطيين في هذه الحالة أن يختاروا بين الانضمام للثورة والتأثير فيها ضد المنزقات الطائفية وضد إستغلالها من قبل قوى خارجية، أو تركها عرضة للأخطار التي يحذرون منها.

الكلمات المفتاحية:

الثورة والمواطنة إنطلاقاً من الحرية والعدالة - بناء الأمة بشكل ديمقراطي - المجتمع والنسق العام - الإصلاح في مقابل الإحتجاج والثورة - الثورة مُسوَّغ ناتج عن الإخفاقات والتلُّف - المصلحة القذرة.. نبدأ هذا المقال بأشكلة مواضيع التفكير العربي الماركسي إنطلاقاً من داخل القضايا التي تُفكّر فيها من الخارج والتي ساهمت بالفعل في سحب كلمته من أنه رجعي داخل فكر وسطي غير منتج وغير مُحدّد لمستقبله وعليه:

هل ستكون الماركسية قاعدة فكرية لأنظمة وأحزاب تحاول الاستفادة منها؟

قد تتخلى الماركسية عن هدفها الذي نشأت من أجله، وهو كفاحها في وجه الإقطاعية والليبرالية لاسترداد حقوق البروليتاريا، وإذا ما تحقق هذا الضياع، تغدو بلا شك، "تراثاً عقلياً خالصاً، يدخل تاريخ الفكر والفلسفة، ولا يعيش في الحاضر"¹ لأهدافه التي كان طالما يدعوا إليها ويكافح.

لقد بات تفكك إرتباط الفكر الماركسي بحركة الكفاح حتمياً، عندما صارت العدالة والديمقراطية والتحرر مبادئ عليا استعاض عنها الفكر بديلاً، ليأخذ من الكفاح دائماً منبعاً يستقي منه عقيدته لنيل أكبر قدر ممكن من الحقوق الطبيعية، وما يشهده العالم العربي اليوم من دعوة إلى مبادئ الحرية والديمقراطية والعدالة إلا علامة على استئثار الخطر في ما هو مألوف، وفي ما هو محدد.

لقد خرجت الماركسية من القداسة التي جعلتها لا تُخطئ، لاسيما تحديات الواقع العربي-الإسلامي، ما جعل إعادة ترميم مبادئها مع تصور لتفكير مُكَمَّل لقضاياها هو الشغل الشاغل للمضي قدماً بما يتناسب ومقتضيات الواقع الممارس .

ذكرنا في البدء، جملةً من الأسئلة كانت تمثل هواجس من ماضي أليم وخائن، ومن حاضر لم ندرك فيه بعد لماذا نحن مشدودون إلى كل هذا الإغراء الناتج عن إحتواءنا من الماضي، ومن مستقبل نضع فيه آمالاً لتفتح غدٍ أفضل، نتمسك بمبادئه التي لم تحدث بعد، لكنها تظهر من خلال ما يشهده العالم العربي-الإسلامي اليوم من نضالات وثورات بيّنت حقيقة الوعي والوعي الزائف. لذا، صار سحب الكلمة من أنّ الوعي بالحرية والوجود وممارسة الديمقراطية أمراً يستحق التفكير بعد أن كان مستبعداً، لأنّ تحقيقها كان يحتاج إلى كسب الثقة في فضاء النضال، وفي الأغلبية، كون المشروع يمثل بحِدّ ذاته مشروع فكر، مشروع أمة ومستقبل، إذا تعاقب بمراقبة مستمرة لمبادئه المعلنة على حساب الجثث من المواطنين.

إذن، هل استفدنا من الانتكاسات التي شهدتها الثورات العربية، والتي أجهضت مراراً بدافع المواطنة والمصلحة القادرة لبعض التيارات والأحزاب، كان الشعب فيها المضحي به لصالح المضحي له ؟

لا بد من الإشارة إلى أنّ الذين لازالوا ينسبون نموذج الحراك الثوري إلى هاجس اليسار، ثم يعلنون تمسكهم به، فإنّهم بهذا يُسيؤون إلى ما يتمسكون به من حيث يظنون أنّهم يدافعون عنه على إعتبار أنّ من نتائج هذا التمسك هو:

- ظهور تيار بدأ يتلمس واقعياً لطريقة جديدة، هو مواصلة النشاط من أجل العدالة والديمقراطية، مستفيداً من الإنتكاسات التاريخية الثورية التي عرفها القرن العشرين في أوروبا، وفي فرنسا بالخصوص، وعلى وجه مُتقدم في تونس سنة 1969، وفي الجزائر من سنة 1989 ما يُبرِّز حيوية المنهج العربي،

¹ - مسّوح، عطية، الماركسية من فلسفة للتغيير إلى فلسفة للتبرير، دار البناييع للطباعة والنشر والتوزيع- دمشق، دون طبعة، 1995، ص 172.

ومدى تكثيف المناهج العربية مع الفكر الجديد في الدعوة إلى تبني مناهج أكثر ليونةً للتعامل مع التغيير.

• نعتقد أنّ الأطارح التي تبنتها الثورة الجديدة منها دعوتها إلى الحرية والديمقراطية على الطريقة الحديثة هي سبب هذا الارتباك، ومنه كان سبباً كافياً لمشروعية هذه القضايا، بحيث تحتاج إلى نضال طويل ومُستميت في سبيل قضاياها الطبيعية لإحداث تطور ملموس، والتعريف بمشروعية هذه القضايا بتكثيف مستمرٍ لخلق الوعي لدى هؤلاء. ومنه، فإنّ تجسيد لثمرة هذا العمل يقتضي ردّ الاعتبار إلى مجتمع بناء المعرفة " **والتعامل معها كحلقة متطورة في عالم الفلسفة (...)** هو - برأينا - نقطة هامة من نقاط الانطلاق"² لضمان ممارسة تنشيط مبادئ المجتمع المدني من خلال تحدّي جديد مطلوب من الماركسية العربية عليها أن تواجهه بانفتاح، وبروحها الفلسفي ومنهجها المادي الجدلي التاريخي أي معرفتها التاريخية بهذه المنزقات.

لم يتوان الفكر الإنفتاحي على هاجس التغيير، في نضاله من تحرير العمل الفكري في الأحزاب المنغلقة على إيديولوجيتها من تسلط قادتها السياسيين أثناء استشعار الوعي بقضاياها المصيرية، من تغييرٍ في خطاب السلطة إلى خطاب أكثر انفتاحاً تجلّى في البراكسيس (Praxis)، إستطاع بمعية الوعي خلق اهتمام بفكر الفرد والسموّ به إلى المواطنة، وردّ الاعتبار إلى تكرّس توظيف الحرية والديمقراطية والعدالة.

تُشكل ثنائية (الثورة والفلسفة) تركيبة عن مدى استمرار الحضور والتأثير للمبادئ التي ناهضت بها الثورة مزاعم أبدية الفكر الشيوعي، كانت بديلاً عن تحجر الرجعية، وبالتالي صار هاجس التغيير دافعاً قوياً إلى نيل الحقوق ومصائر الشعوب بالدعوة إلى قضاياها المشروعة، ما بدّد فكرة أنّ إجهاض الثورة باتت غير مقبولة.

ما ميّز الفكر الصاعد في العالم العربي هو تحديده لتاريخه للتو، بدأ هذا التاريخ بوعي بأنّ التعدد والتنوع والوحدة والصراع والكفاح هي للواقع وللمواطن، وهي مصدر التطور الفكري وغير الفكري.. نعتقد أنّ بلوغ الأنظمة الماركسية والأحزاب الاشتراكية مرحلة النضج والوعي، كان من خلال النضال غير المنقطع، حتى وصلت إلى ممارسة معنى البراكسيس لتطبيق النموذج المرسوم في العقل وقارنته للواقع، وهذا ليس هيئناً، بل يحتاج إلى كفاءات وتجميع الآراء المتباينة، وتجاوز التحزّب إلاّ للوطنية من خلال أن يكون عنواننا هو:

² - المرجع السابق، ص 175.

● تغيير الواقع أي أن يكون فكرنا ثورياً، إنطلاقاً من أخذ الحاجة الاجتماعية ومستوى الطاقات التغييرية بعينٍ فيها إدراك قيمة الواقع، وهكذا: " فإنَّ المطلوب من الأحزاب الماركسية في البلدان النامية ومنها الأحزاب الشيوعية العربية، أن تُراجع تحليل شعاراتها ومناهجها، فلا تظل أسيرة التحليلات الكلاسيكية والقرارات النمطية، مطلوبٌ منها أن تتجاوز ما سُمي بالقوانين العامة للاشتراكية"³ لأنَّ العدالة الاجتماعية هي هدف دائم، لا يُمكن اختزاله بقوانين، وإتّما هي تطبيقات نضالية وممارسة لواقع تأتي من الانتقال من التهميش الوطني إلى الإيمان الثوري بالتغيير.

صحيح، فنحن لا نخفي بأنَّ ترسبات الثورة بدأت من التهميش والإقصاء وتشكّلت في رحم الدعوة إلى الإصلاح السياسي والإقتصادي والاجتماعي، إلى أن مثلت هاجس بدأ صداه يعلو لتحقيق المبادئ الطبيعية، حيث الإغتراب الذي وُلد في داخل النظام، طرح بالتالي فلسفة للتغيير تجلّت في فلسفة للفعل الاجتماعي، فلسفةً للتغيير، حيث الحرية هي الخلاص من الاستلاب ولأجل الوصول إلى هذا المكسب، لابد من تجاوز عقبة الملكية اللامتناهية.

آن أن نَسَحَب كلامنا على أنَّ الثورات التي أعلنها شباب العرب المناهض الآن هي لنيل الحرية لا طلباً للرحمة، فهي تقتزن بالديمقراطية لا بإشباع البطون، وتحقيق هذه المطالب نضمن على الأقل عدالة إجتماعية، ومن هنا الهدف الأول للطبقة العاملة هو إدراك الديمقراطية وإقامة الدولة. لقد نجح الفكر الثوري العربي أن يطرح مشكلة حرية الإنسان، داعياً إلى تقرير حقوق الإنسان بكافة أشكاله: " وإلى تخليصه منه عن طريق معالجة:

- المشاركة السياسية(الطبقات والسلطة).
- المشاركة الإقتصادية(الطبقات والملكية)⁴ حيث هذين تأسسا على انتزاع طابع القداسة لفضاء الديمقراطية الشكلية النظامية، وتبرير الحرية في كل شيء بالوصول إلى الوقوف على أسباب الخوف من التغيير، فبات هذا الأخير هو محرك الثورة العربية بوضع لتاريخ جديد صنعته الجماهير الشعبية.

تاريخياً، لسنا نبغي تأسيس ديمقراطية ليبرالية على طريقة الأنجلو- سكسون ل: كارل بوبر(Karl Popper) ولا على طريقة الاشتراكيين الإجتماعيين لماركس ولينين وديكتشيك

³- المرجع السابق، ص 179.

⁴- المرجع السابق، ص 117.

وغورباتشوف، بل ننظر إلى هؤلاء كيف صنعوا تاريخهم ووجودهم، لأنّ المصير صار يرتبط بكيف تُحدث التغيير؟ وبأي طريقة تستفيد من الخطابات؟

التأصيل المرجعي:

إنّ التاريخ يُكرّر نفسه، فخلال 12 أوت من الأربعينيات للقرن العشرين دخل ربع مليون جندي من دول حلف وارسو تشيكوسلوفاكيا بألفي دبابة، عندئذٍ طلب ديكتشيك من الشعب عدم المقاومة، لكن طبيعة هذا التدخل الإحتلالي في تحديد مصائر المجتمعات والأقليات قد فجر رأي الشعب، فتعاهد ثلاثة شبان على إحراق أنفسهم، كان فانبلاخ أولهم، وخلال تسعينيات القرن العشرين قاد الأديب فاسلاف هافن ثورة ردّ فيها الإعتبار لزعيم الثورة ديكتشيك لقوله يُمكنك أن تدوس الأشخاص، لكنك لن تستطيع أن تؤخر الربيع.

أصداء الثورة داخلياً:

تمة مفارقة هي كون النظام يختلف عن الشريحة الإجتماعية الغالبة في تبنيه سياسة تعنيفية أملت عليه الوقائع الإقطاعية والتاريخية، فسوريا في الخمسينيات أسقطت حلفي بغداد وإيزنهاور، حنئذٍ كانت متطورة.

إنّه التهكم النظام من كل شيء حتى في مصائر شعوبهم، فباسم الحفاظ على مؤسسات الدولة وكيانات السيادة، يُقتل الشعب على مرأى من الناس، فهي نفس المؤسسة التي أُنتخبت لحماية الشعب، تقتله بإسم النظام، لكن لا نتفاجأ عندما نرى عمليات القتل والإغتصاب وممارسة الإنتهاكات تحت غطاء الدفاع عن السيادة ضد المتطرفين والمندسين، عملية من عمليات ربح الوقت لمزيد من الخروقات بهدف ترويض الشعب، كلها آليات كوَّنت معنى ممارسة الخطاب التاريخي للأنظمة العربية، لهذا فهي مصابة بالفوبيا (La Phobie) كنتيجة عن إنعدام الثقة في شعوبهم.

لا تمثل المؤسسة الوجه العلاجي لإعادة الإندماج، بقدر ما تعالج الوجه السلبي لنفوسهم المريضة، نتيجة الإخفاقات المتكررة عن معالجة المسكوت عنه، والدافع هو إتخاذها من العنف ذريعةً للمحافظة على ملكيتها، إذاً هي أزمة الخوف من الثورة هي أزمة الهوية الناتجة: "عن الإخفاق في حل التناقضات الإجتماعية والسياسية بالطرق السلمية.."⁵.

⁵ - غليون، برهان، حوارات من عصر الحرب الأهلية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، (دون سنة)، دون طبعة، ص 42.

واقع المؤسسة:

تعيش المؤسسة توالد لسلوكات عنيفة، هي أخطر على الفرد والمجتمع، نتيجة إحتفاظها برجعية الآليات التي تمارسها على مرأى من النظام العالمي، وعلى مسمع من تواطؤ من أنظمة الفيتو-الأسوي (الروسي - الصيني).

نعتقد أنّ حُسن إختيار النظام الشمولي للزمان في ممارسة التعسف والتعدي كان من ثلاث جوانب:

- **شكلية:** كون النظام إتخذ من معنى الشكل وجوده الواقعي، أي له نظام معروف، ورئيس معروف، وهذا الشكل كان متبع من قبل التنظيمات المسلحة.

- **المنهجية:** ليس لهذه التنظيمات المسلحة أي نظام تعتمد عليه..

- **الموضوعية:** فالإنتفاضة السلمية إنتقلت من اللاعنف كانت تبغي الإصلاحات، وهي سياسة سلمية قد إتبعها غاندي ونجح فيها، في حين على العكس من ذلك، النظام الشمولي يحاول دون كلل أن يغتصب لهذه الثورة أحقيتها، بمحاولات إجهاض شرعية الإنتفاضة الشعبية المناضلة من أجل الحرية والديمقراطية والإصلاحات..

لم يتوان المندسون⁶ بمشاركة قوى خارجية وداخلية على نشر القتل وممارسة الخناق على الثورة، برأينا، الإنسان العربي تتجاذبه قوى تعنيفية من الداخل تجعله ممزّق الهوية جرّاء التناقضات الإجتماعية، السياسية والإقتصادية التي يجد نفسه فيها مغترب، إستلابه هذا دفعه إلى ممارسة حقه لمواجهة العنف، هذه السلوكات العنيفة هي بحق نتاج المؤسسة.

يبدو لنا، أنّ هناك أزمة إستراتيجية تحتاج إلى آليات لتصحيح الأفكار، تكفل للمجتمع أحقيته في التعبير وفي الحرية والديمقراطية منها:

- إذا أردت أن تحطم إرادة شعب، فعليك أن تدوس مقداسه، وهو عمل منظّم من النظام، غرضه تحديد معنى الفضاء والإنتقال به من فضاء مفتوح إلى فضاء مغلّق كالذي يجتمع حوله المسلمون⁷.

⁶- من إتخذت من اللاأخلاق واللاقيم..معايير أضحت تباع وتشتري من المتأمرين على الثورة .
⁷- رمي المآذن والمساجد خصوصاً ودور العبادة الأخرى بالقنابل لفصل المسلم عن مقداسه، وعن الفضاء الذي يستق منه قوته..

بدون إستثناء، يعيش الشارع العربي حالة من الهلع تمارس عليه كل أنواع الجنون من خلال تقنياته في ممارسة الخطاب وهي آلة التعذيب..، إذاً العالم لمصلحته الخاصة، لا لإنسانيته يتعامل بمصلحة قدرة ومزلفة فيها تغليب للنفاق قبل الثورة والآن هو بعد الثورة كما في مصر وتونس.

يتحدث الناشط والمناضل/ حسن العودات/ بأنّ النظام العربي في صيغة رمزية والسوري في صيغة واضحة على ممارسته عمدياً بنزع طابع القداسة (Désacralisation) عن الفضاء وهو الرمز المقدس عند المسلم الغيور، فإستهداف الأماكن التي لها أكثر من معنى ومن دلالة على التواصل وعلى الوعي الجماعي تمثل كتقنية عودة إلى أشباه محاكم التفتيش التي حدثت خلال القرن السادس عشر (معركة البُشُرات..).

إذن، هل ما يحدث في الدول العربية هي مطالب أم ثورة؟

بحسب المختصين، فهي مطالب شرعية أكثر منها ثورة، لأنّها إتخذت من الحرية والديمقراطية والمساواة حقوق طبيعية أقرّها القانون والعرف الدولي، وبالتالي فكل أشكال الخطاب من قتلٍ وعنفٍ وإبادة جماعية، وإنتهاك الحُرُمات، هي تقنيات لا تختلف عن خطاب القرون الوسطى وسياسة محاكم التفتيش من تدنيس للمقدسات، هي لهدف إرهاب الثوار وعزفهم عن مطالبهم، فلا القانون يردع ولا الأمر الأخلاقي يردع، حيث الجهاز الأمني حوّل له التعسف والتعدي بحماية من النظام، فهو في حصانة جهاز الدولة.

- نعتقد إلى حدّ الجزم، بأنّ هناك صمّتٌ عربي قاتل لإرادة الشعب بتواطؤه عن عدم إدانته الأعمال الوحشية التي يتعرض لها المناضل.
- لا ننتظر من الأنظمة الشمولية (Les Totalitaires) أن تكون ديمقراطية ولو ليوم واحد، بل تُفرض عليها عُنوةٌ من الثورة (المطالب الشرعية).

نحن أمام الداخل وهو الشعب (الحراك الشعبي..) وهي صاحبة الموقف بإرادتها بفرض الديمقراطية، وهناك الخارج (Dehors) والمتمثل (في المعارضة في الخارج) ما يُشكّل الثنية (Le Pl). (Pli).

مسألة إعتبار أنّ المجتمع العربي (الشباب خاصة..) بأنّه إستهلاكي باتت متهافة، لأنّ الثورات الشبابية أثبتت جدّية مطالب الثوريين بالحرية والتغيير، وبالتالي حتى الجهاز المفاهيمي للثورة، هو بمثابة برهنة على الوعي بالراهن، من خلال أنّه :

- لقد إستطاع هؤلاء خلخلة مواطن الصمت في النظام.

● الحراك الشعبي يدل على الوعي بالهوية، وله منحيين:

- صبرٌ مستديم للمتظاهرين.

- هاجسٌ قوي لا يتوانى أن يُجَدِّد طريقه إلى النضال.

فعلى نحوٍ متجانس، فالإشارة إلى التحولات في المطالب، هو أنَّ النظام أكَّدَ لمراتٍ متتاليات بعوده النفاقية بالإصلاحات، ما جعل من إزدیاد تقلص الهوة بين الثورة والنظام (L'impasse) مؤسَّس على رجعية فكره من خلال الإستحواذ المتزايد والمقدَّس للفضاء.

لا ننكر بأننا نعيش تراكم في التعامل النظري والمعرفي والتاريخي لمسألة المعاش اليومي للبراكسيس، فلا بد أن نُحدِّد مقتضيات التراكم الموجود من خلال عملية فرز⁸ لمختلف المجالات المعرفية بين المسارين النظري والتاريخي.

بدافع المصلحة القذرة للسلطة تُحمَّل مؤسسات القتل الأفراد نتائج أفعالهم جراء التدمير والتقتيل والتكسير بإسم الحفاظ المؤسساتي لأجهزة الدولة، حيث تصف السلطة هذا السلوك باللامتحضر وغير قانوني.. فمزيداً من ممارسة القمع واللاعتراف بأحقية الآخر في السلطة وفي التغيير، يؤدي حتماً إلى الكشف عن الطبقات العميقة لإنتاج الخطاب.

أهم ما شغل تفكير المثقف العربي هو الفراغ في تحقيق ممارسة ثلَامِس العدالة الاجتماعية، والحداثة والاستنارة، من خلال جهتين هما:

● قضايا الوعي كانت نتيجة الخوف من الداخل الرفض.

● قضايا الوعي هو بمثابة الخوف من الخارج.

لقد حاول اليسار العربي أن يلعب نفس الدور الذي مارسه الماركسية في تحرير الأقليات والمجتمعات المناهضة للرأسمالية مثلاً: بروز دور الدين في أمريكا اللاتينية كان تحريراً كما أراد اليسار في الفكر العربي أن يكون الإسلام على نفس النهج، للتحرُّر من عقدة الخوف.

جاءت الألفية الثالثة بتأسيس لتاريخ جديد، هو محاض الثورة العربية وحرىها ضد شراسة الأنظمة الشمولية، حيث مطالب الديمقراطية أصبحت اليوم حاجة ملحة للمجتمع العربي كنتيجة عن اليسار القديم، والمتصاعد الآن في هذه المجتمعات، فكانت لحظة الثورة، قد أفرزت جيلاً جديداً من اليسار تبني:

⁸ - عملية الفرز تشير إلى كونها وظيفة غير محددة لأنها لم تصل بعد إلى ترتيب التراكم المنتظر، وهو أهم من المعاش، مأمولاً لكنه يعرف اللحظة كمشروع ثوري..

- العدل.
- المساواة والحرية.
- مناهضة الاستغلال.
- مناهضة الإمبريالية (الشمولية).

ومع ذلك، تلك هي مطالب اليسار الحقيقي، كان فيها الإنسان العربي مَصِيدَةً مشروع وسَّخ، مشروع إيديولوجي. الآن، نسحب كلمتنا على أنَّ عهد الخوف والرضوخ قد ولى، لنحدد يساراً يليق بنا، وبوعينا وبقضايانا.. وإرتكناً إلى هذا المآل لا تراهن الشعوب المغلوبة على غيرها (دول الفيتو) أن تمارس ضغطاً على النظام الشمولي، لأنَّ الوقائع التاريخية كفيلاً أن تصحَّح هذه الشرعية الدموية.

تاريخ 06 مارس 2011، هو معاقبة السجانيين للمساجين في اليمن بالعصي والهرات⁹ كنتيجة على الإحتجاجات الشعبية، أعقبه لاحقاً بشكل قليل إعلان حالة الطوارئ كسياسة وافق عليها البرلمان اليمني لمنع ما يسمونه بحالة الشغب.

أيام 20- 23 مارس 2011 بسوريا هو قمعٌ لمدننا لمشاهدتها كذلك الإعلان على الإصلاحات مثَّلها حركة آذار الشبابية، وفي الطرف الآخر، يُمنِّي رئيس تونس زين العابدين بن علي أنَّه قضى خمسين سنة في خدمة تونس، فهذا التماطل هو لغرض ربح الوقت بإعطاء الشرعية لأعماله القذرة إزاء شعبه، لكن يجب ألا ننسى أنَّ الرئيس التونسي المخلوع قد أتاح لشعبه الوعي للإنقلاب عليه يوم أن مكنتهم من فتح القُرس على العالم الآخر الغربي خصوصاً، وهذا مكسب للثورة الشبابية لتونس، لأنَّها ثورة أسَّسها المثقف التونسي.

لا يخرج مفهوم النسق في فلسفة الحياة النظامية عن معنى التواطؤ لآلة الحرب والسياسة، فنجاح هذه الأخيرة هو في ممارسة مستديمة للسلاح من أجل البرهنة على الوجود الواحد وهو النظام. لذا، يستعمل الأمن ما حوِّل له من تحدّيات هي بحدِّ ذاتها تمثل تقنيات لفعل الخطاب منها حالة الطوارئ كسياسة جبانة إزاء الخوف من الوعي الجماهيري.

ما يحكم الثورة هو الترسبات الاجتماعية، السياسية والاقتصادية التي أدت إلى هذه التراكمات العنصرية في المجتمع، حتّم على المسكوت عنه أن ينفجر ويتحدث بخلق خطاب هو اللاخطاب إزاء الخروقات التي تخضّت عن الوعي والوعي الزائف للنسق، حيث المسافة للإقتراب من المستحيل على التفكير فيه صار مفكراً فيه.

⁹ - هي تقنيات تُكوّن الخطاب الوحيد المتعامل به مع الشعب، ومع كل خارج عن اللاوعي العام..

لقد وجد معنى النسق دليله من خلال الثورة الشبابية التي طالما نادى بالإصلاحات فقط، وبمراعاة ظروفها كمواطنين، كل هذا صار حتمياً أن يخلق وعياً لدى الإنسان الذي ظلّ قابلاً في الإنسان نفسه من خلال حديثه مع نفسه، فمفهوم التواصل الداخلي قد فجر معنى الخارج بطرحه لثنائية الذات والموضوع، ما شكّل بحق بداية إسترجاع الكرامة (La Dignité).

لقد كشف الربيع العربي عن أزمة حادة في شبكة العلاقات الاجتماعية، كانت نتيجة التعامل بأسلوب أحادي ومنفرد لدى فئة الحكم، برّر أسلوباً إقصائياً للشباب، لهذا كله كان لإكتشاف عدم الإلتزام بمثابة: "ظاهرة نفسية تعبر عن حالة من حالات الحياد العاطفي بالنسبة"¹⁰ للشباب في نظر المجتمع الناتجة عن عدم الشعور بالألفة مع الآخر أو قد يكون نتيجة حب الذات (الأنانية) والفردية، نتج عن هذا التحييد عزل السلطة للفرد وإضعافه، فقُذِّدَت القدرة على الاندماج والتفاعل الاجتماعي بشعوره لإرادياً عن مُلكٍ حتى نفسه، فهو إذن مُلكٌ غيره، حتى إرادته فهي ليست له، وبالتالي يتعذر وجود إنقلاب في ظلّ غياب كل أملٍ بالتغيير وفي التغيير.

تشهد الألفية الثالثة إستثمار للأزمة التي عاشها الشباب في وطنه العربي على إمتداد عقودٍ من الزمن، شكّلت المخاض الذي صار يُحرّك دواعيه لإنتاج إنسان آخر داخل هذا الشاب نفسه، ما فرض حقلاً سوسيو- ثقافي معرّي في علاقة هذا المخاض بدءاً من الإغتراب إلى عدم الإلتزام في إنتاج منظومة معرفية- إجتماعية هي نتاج الأزمة: "فصفات ومميزات الشباب هي وحدها المتلائمة مع حاجات أمتنا المتحفزة للبعث والنهوض"¹¹ لتحديد ثنائية الإغتراب وعدم الإلتزام علاقة سن الشباب بصفة الثقافة والوعي الذي مثّل هاجس المشكلات الشبابية في دول العالم العربي لشمال إفريقيا خصوصاً والوطن العربي عموماً، وهو هاجس ظلّ ينتابه نتيجة النظام الكلي الشمولي (Totalitaire).

يُشكّل الشباب القوة المنتجة للإنقلاب والتغيير، وبالتالي، فرض هذا الراهن نسقاً معيناً إثر عملية الإنقلاب والتغيير الاجتماعي، فبدأت أصداء الأزمة تأخذ مجراها الفعلي في سياسة الشباب التي باتت مُقنعة للعودة بالإنسان إلى إنسانيته..

إنّ إكتشاف الإنقلاب (الإصلاح) الذي ظل ينشده الشباب العربي في وطنه، قد إرتبط بالتغيير الراهني لطبيعة سياسة النظام، لكونه فقد الثقة المؤقتة لعمل وعي المجتمع المدني، حيث من هذه اللحظة

¹⁰- صُبْحِي، سيد ، الشباب.. وأزمة التعبير، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 2002، ص 17.

¹¹- عقل، ميشال ، في سبيل البعث: الكتابات السياسية الكاملة، دون طبعة، الجزء الأول ، دون دار النشر، (دون سنة)، ص 28.

التي سبقت الانقلاب بالتغير الاجتماعي، بدأ يُمارس لمعنى الأزمة التي بدأت حدّتها مع علاقته ببعض التنظيمات الاجتماعية والإقتصادية، صار فيها فاقدٌ لمعنى الانتماء والهوية، فدلالة الأمل (L'espoir) في فلسفة التغيير وقناعات بأنّ الحدث الذي ينشده هؤلاء الشباب هو الشغل الشاغل للتبدل الراهني من وضعٍ أسوأ ومأسوي إلى وضعٍ فيه آمال بالتغيير.

فتبين الأحداث التي جرت في الدول العربية ولا زالت تتأجج، الدور الإستثماري الوظيفي غير الممارس بشكل كلي لفئة الشباب في الإستفادة من هذه الأحداث ومعالجتها إيجابياً، فالشباب اليوم يغرق داخل ترسبات تاريخية كالتأطيفية والإقليمية والمحلية، بتأثرها بالزمان والمكان الذي توجد بداخله، وهو يمثل من جهة أخرى فعل - وردّ الفعل (action- réaction)، فيطرح الشباب مشروع فيه أمل هو اليقظة في ظل الأحداث.

تحتاج هذه المرحلة من الانقلاب والتغير إلى تشريح تفصيلي لكل مجريات هذه الثورة، عندئذٍ: "فالإشتراكية اللاقومية لم تفهم حاجات المرحلة"¹². لهذا، إرتبط نشاط الشباب بالإستلاب على مَرّ التاريخ القديم والحديث، وإزداد شدّة، أثناء الحكم الواحد الشمولي، "وإقتصر رعاية الشباب على ملء الفراغ من خلال تكملته بالنشاطات"¹³ والأعمال دون النظر إلى عملية توعيته قومياً من خلال إستثمار فكرة الإنبعث ، وأنّ كل العمليات التي فيها نشاطه تأسست من قبل المؤسسة على تلافي إقصائه، وبأنّه آن، وقت الحديث عن تاريخ جديد بدأ للتوّ يكون فيه الشباب هم أساس التفكير والانقلاب لبدأ مرحلة جديدة، هي المشاركة السياسية في صنع قراره وقرار الجماهير.

الثورة والشباب.

إنّ التغيير المستمّر للعلاقات الاجتماعية، هي في أساسها نتيجة الانقلاب على الوضع الراهن والمتري، فتأتي بمثابة: "واقعة إجتماعية شاملة (...)" وهي تشمل جميع ميادين الثقافة، وينشأ وضعٌ ثوري عندما يتم إعداد حلول أو تحديدها تماماً، لتحل محل الحلول السابقة"¹⁴ ومن جملة هواجس الشباب الأمل، هو إنتقاد الأنماط الثقافية والسياسية.. لتصبح الثورة تحريراً للخلق الشخصي وبعثاً للمبادرات في وجه الأفق المسدود، وسلطة الضغط السياسية، ولتأصيل مبدأ المواطنة على مستوى الشباب في الفكر العربي وإشكالياته، تُشيرُ إلى الأزمة التي تعيشها المواطنة من خلال التراكبات التاريخية،

¹² - علق، ميشال، المصدر السابق، ص 35.

¹³ - عثمان الصديقي، سلوى وآخرون، منهاج الخدمة الاجتماعية في المجال المدرسي ورعاية الشباب، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث ، دون طبعة، 2002، ص 370.

¹⁴ - الخولي، سناء ، التغير الاجتماعي والتحديث ، دار المعرفة الجامعية - الأزاريطة، دون طبعة، 2006، ص 72.

والسوسيو- ثقافية، نظراً لغياب: " تحقيق ضمان حماية قانونية وإجتماعية لمواطنيها، دفع إلى إنتشار الإحباط والإهزامية لدى شريحة عريضة من المواطنين ¹⁵، ما دفعهم إلى كتابة تاريخ جديد يبدأ من الآن نتيجة تأثرهم بأحداث كبرى كالظلم والإستبداد والإقصاء والتهميش والإستئثار بالسلطة والشمولية في الحكم. وفي ظلّ هذا الوضع المتشجّج، كان الإنقلاب كمرجع لحلّ الإشكاليات العالقة ولممارسة قانونية لمعنى المواطنة.

لقد برهنت الوقائع الأخيرة التي قادها الشباب في الربيع العربي إلى تأكيد الذات، حيث الأفكار الإيديولوجية التي تبناها هؤلاء وعملوا على إستثمارها، بيّنت تألقهم إلى التغلب على ظاهرة الحيّاد وعدم الإنتماء والإنتقال إلى تحديد المصير إلى صُنع المصير، وبات الشباب يُثقلون غيرهم أكثر من أنفسهم حيث الإبتعاد عن الوثوقية (Dogmatisme) صار قناعةً للإنتقال وقوام هذا التوظيف هو: " الإنفتاح على شتى التجارب الواعية المعتمدة على القيم الدّينية والأصول والأعراف الإجتماعية ¹⁶، وهذا ما يُتيح:

- المساهمة في تناول المشكلات بوعي تام وعزم بالتغيير.
- النظر إلى الإنقلاب كمخرج من الأزمة.
- إعتبار الأزمة تفكيراً لواقع مُعاش يحتاج إلى إعادة النظر.

فنحن نركز على هذه المرحلة العمرية من جيل الشباب بإعتبارها نقطة تحوّل في خلق إرتجاج في فهم الواقع المعاش (L'expérience Vécue) من جيل الشباب وجيل الكبار مع التركيز على فهم المرحلة الأولى بعمق: "إننا لا نريد أن نكون عيالاً، إننا نحيا.. أن نعمل.. أن نثبت وجودنا.. لماذا نصيغون منا زهرة العمر وقد أغلقتم علينا تلك السجون التي أطلقتم عليها خطأ: إسم المدارس والكلّيات، وقد جعلتم حولها سوراً أضخم من سور الصين العظيم يُحوّل بيننا وبين المشاركة في الحياة العملية. إننا متفرجون على الحياة، ولسنا مساهمين في صنع الحياة ¹⁷.

عندئذٍ يتم إحداث شقوق بين تركيبة المجتمع والنخبة المثقفة ف: " يفقد المجتمع توازنه العقلي ورشده عندما تتدهور العلاقات بين الهيئة العامة والجمهور، إما بسبب إرتباط الهيئة العامة بمسائل

¹⁵- شريف، سعيدة، مفهوم المواطنة في الفكر العربي الإسلامي، كتاب لعبد الجليل أبو المجد، على موقع غوغل - المواطنة- (دون سنة).

¹⁶- صُبْحِي، سيد، المرجع الأسبق، ص 70.

¹⁷- ميخائيل أسعد، يوسف، الشباب والتوتر النفسي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع- القاهرة، دون طبعة، 2001، ص 05.

تتحدد خارج المجتمع الذي يعيش فيه، أو بسبب إنعدام وسائل الإتصال، بما في ذلك غياب حرية التعبير¹⁸ وهذه الشكوك تكون نتيجة عدم وجود الثقة بين الشاب نفسه والناجحة عن فقدانه لمنظومة المعايير والقيم المشتركة، فتنعكس على الشاب، آنذاك تنتج المشكلات الشبابية الملء بالإحباط وكرهية الذات، فيتحول هذا الفعل إلى صراع لا حدود له ولا آفاق، حيث وجود الأحداث المتقلبة التي يعيشها، تجعله يُدرك أنه موجود خارج الإحداثيات المكانية والزمانية ويعجز فعلاً: " أن يحدّد مكانه فعلاً في التاريخ، كما يعجز عن تحديد عن ما يريده وما يطلبه وما يشترط أفعاله، ويفقد من ثم الرؤية والمبادرة معاً"¹⁹.

ومن خلال شروده بين الداخل (المشكلات) والخارج (الفساد) يُنشئ الشباب إنطلاقاً من الداخل والخارج معنى الثنية (Le Pli)، فيستفيد منها لإنتاج تاريخ آخر يبدأ للتو. وحيث الإنتقال من جمود القيم والمعايير التي عبّرت هي الأخرى في مرحلة ما، عن الفعل - وردّ الفعل ضد الخارج، تظهر الآن مشكلات هي إفتراض حقيقة ملموسة هي خطاب الهوية، كثقافة ينشدها الشباب لتغيير وضعه مع نفسه ومع الآخرين، رداً على مصادرة هذه الأنظمة جميعها حقوق المواطن الفرد، وإحتكارها مصادر القوة بمزاوجة السياسة والإقتصاد.

المصادر والمراجع.

1- الخولي، سناء ، التغيّر الإجتماعي والتحديث ، دار المعرفة الجامعية- الأزاريطة، دون طبعة، 2006.

2- شريف، سعيدة ، مفهوم المواطنة في الفكر العربي الإسلامي ، كتاب لعبد الجليل أبو المجد، على موقع غوغل - المواطنة-، دون سنة.

3- صُبّحي، سيد ، الشباب..وأزمة التعبير، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 2002.

4- صُبّحي، سيد ، المرجع الأسبق.

¹⁸ - غليون، برهان ، مجتمع النخبة ، معهد الإنماء القومي- بيروت ، ط1، 1986، ص ص 222- 223.

¹⁹ - غليون، برهان ، الوعي الذاتي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، ط2 ، 1992، ص 21.

- 5- عثمان الصديقي، سلوى وآخرون، منهاج الخدمة الإجتماعية في المجال المدرسي ورعاية الشباب، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث ، دون طبعة، 2002.
- 6- عفلق، ميشال ، في سبيل البعث: الكتابات السياسية الكاملة، دون طبعة، الجزء الأول، دون دار النشر، دون سنة.
- 7- عفلق، ميشال، المصدر السابق.
- 8- غليون، برهان، حوارات من عصر الحرب الأهلية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، دون سنة، دون طبعة.
- 9- غليون، برهان ، مجمع النخبة ، معهد الإنماء القومي - بيروت ، ط1، 1986.
- 10- غليون، برهان ، الوعي الذاتي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، ط2 ، 1992.
- 11- مسّوح، عطية، الماركسية من فلسفة للتغيير إلى فلسفة للتبرير، دار الينايع للطباعة والنشر والتوزيع- دمشق ، دون طبعة، 1995.
- 12- ميخائيل أسعد، يوسف ، الشباب والتوتر النفسي ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع- القاهرة ، دون طبعة، 2001.